

الفصل السابع

المحن والارتقاء والآمال

كان الوضع في مكة يزداد سوءاً، وكان من بين أشد خصوم الإسلام شراسة، إلى جانب أبي لهب وأبي جهل، عمر بن الخطاب، وكان هذا الأخير قد اشتهر لكونه قام بضرب امرأة دخلت حديثاً في الإسلام ضرباً عنيفاً.

عمر بن الخطاب

كان قد بلغ السخط مبلغاً كبيراً من عمر جراء ما آلت إليه الأحداث. فقرر أن الشيء الوحيد الذي يمكنه عمله هو أن يقتل النبي ﷺ. فهذه أضمن وسيلة لوضع نهاية لحالة الفوضى والفتنة اللتين فشتا في المجتمع المكي وعرضتا ذلك المجتمع برمته للخطر.

خرج من بيته، وسيفه بيده، يبحث عن محمد ﷺ. في طريقه، لقي نعيم بن عبد الله ﷺ، الذي كان قد اعتنق الإسلام سراً، فسأله نعيم عن سر غضبه وأخبره عمر عن عزمه على قتل النبي ﷺ. ففكر نعيم بسرعة عن وسيلة لصرفه عن تنفيذ خطته: فتصح به بأن يرجع إلى أهل بيته قبل التصدي لمحمد ﷺ. فأخبره أن أخته فاطمة وزوجها سعيد - رضي الله عنهما - قد اعتنقا الإسلام، ذهل عمر وغضب وغير خطته وانطلق مباشرة إلى بيت أخته.

كانت أخته وزوجها يتلوان القرآن مع خباب رضي الله عنه، وهو من شبان الصحابة، عندما سمعوا شخصاً يقترب من منزلهم، توقف خباب رضي الله عنه عن التلاوة واختبأ، لكن عمر كان قد سمع صوت التلاوة داخل البيت، فسألها ببرود عما كانا يتلوانه، فأنكرا ذلك، لكن عمر أصر على أنه سمعهما بكل تأكيد يتلوان نصاً من النصوص، فرفضاً مناقشة الموضوع، الأمر الذي جعل عمر يستشيط غضباً، فانقض على ختته يريد ضربه وعندما حاولت أخته التدخل، لطمها وأسأل دمها، فكان لمنظر الدم على وجه أخته أثر فوري فتوقف عمر. في تلك اللحظة، قالت أخته بقوة: «نعم، لقد أسلمنا ونؤمن بالله ورسوله. فاصنع ما بدا لك»⁽¹⁾. ذهل عمر؛ كان يتنازعه الندم، لكونه أذى أخته، والحيرة بشأن الأنباء التي بلغته للتو. فطلب من أخته إعطاء ما كانت تقرأه عند وصوله، فطلبت أخته منه أن يتطهر قبل ذلك، وقد شعر عمر بالتعقل لكنه ظل منزعجاً واستجاب لطلب أخته وتوضاً ثم أخذ يقرأ:

﴿طه ١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرِ الْقَوْلُ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾﴾⁽²⁾.

كانت هذه الآيات الأولى التي قرأها ثم تابع قراءة الآيات التي كانت سرداً لدعوة الله لموسى عليه السلام في جبل سيناء، إلى أن وصل إلى الآية:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) .⁽³⁾

توقف عمر عن القراءة وأعرب عن إعجابه بجمال ونبل تلك الكلمات. عندها تشجع خباب من موقف عمر الإيجابي على ما يبدو، فخرج من المخبأ وأخبره بأنه سمع النبي ﷺ يدعو الله بأن ينصر المسلمين إما بأبي الحكم أو بعمر بن الخطاب⁽⁴⁾. سأله عمر عن مكان محمد ﷺ، وعندما أخبره بأنه في دار الأرقم ذهب إلى هناك. ولما وصل إلى الباب، شعر الذين كانوا في البيت بالخوف لأن عمر كان لا يزال معه السيف في حزامه. لكن النبي ﷺ قال لهم بأن يدخلوه وقام عمر على الفور بالإعلان عن عزمه على دخول الإسلام. فهتف الرسول: «الله أكبر!» ورأى في اعتناق عمر للإسلام استجابة لدعوته.

كان النبي ﷺ يعرف أنه لا يستطيع السيطرة على القلوب، ففي مواجهة الاضطهاد، وفيما كان يعاني من صعوبات جمة، توجه إلى الله آملاً أن يهدي الله أحد الرجلين اللذين كان يعرف أن فيهما الصفات البشرية فضلاً عن القوى اللازمة لعكس وضع الأشياء، وكان النبي ﷺ يعرف بالضبط أن الله وحده هو الذي بيده هداية القلوب، فبعض الأفراد يحتاجون إلى وقت طويل قبل أن يهتدوا، لا بد لهم من سنوات من التساؤل والشك، والتقدم والتراجع، بينما كان آخرون يهتدون على الفور، بعد قراءة نص أو استجابة لبادرة أو سلوك معينين، وهذا ما لا يمكن تفسيره. ولم تكن الهداية التي استغرقت أطول الوقت هي الأكثر متانة بالضرورة، والعكس ليس صحيحاً أيضاً؛ فعندما يتعلق الأمر بالهداية وتقلب القلوب

والإيمان والحب لا يوجد منطق وكل ما يبقى هو القوة الإلهية الخارقة، كان عمر رضي الله عنه قد خرج من بيته وهو مصمم على قتل النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن كان قد أعماه إنكاره للإله الواحد، وها هو، بعد بضع ساعات، قد تغير وتحول جراء هداية حركتها آيات قرآنية والمعنى الإلهي، وكان من شأنه أن يصبح واحداً من أشد المسلمين إخلاصاً للرجل الذي كان يروم قتله. ما كان لأحد من المسلمين أن يتصور بأن يهتدي عمر رضي الله عنه إلى رسالة الإسلام، التي كان يعبر عن كراهيته لها بقوته المعهودة، لقد كان الانقلاب الذي طرأ على قلبه آية، تتطوي على درس مزدوج: أنه ما من شيء يعجز عنه الله، وأنه يجب عدم إطلاق الأحكام النهائية على أي شيء أو أي شخص. كانت هذه تذكرة جديدة بالحاجة إلى التواضع في جميع الظروف: فبالنسبة لكائن بشري، إن تذكر قدرة الله اللامتناهية، يجب أن يعني شكاً صحيحاً بذاته هو وتعليق إصدار الأحكام بالنسبة للآخرين، وهكذا فكلما ازداد النبي صلى الله عليه وسلم قرباً من الله - حيث كان كل يوم أكثر قدوة لصحابته وللأبدية - كان يتحقق فيه التواضع الذي كان يتجلى في وجوده ومعرفته وحكمته.

كان عمر رضي الله عنه، بما أوتي من جرأة وشجاعة، قد قرر الإعلان عن دخوله في الإسلام، فذهب على الفور إلى أبي جهل لإخباره عن إسلامه، واقترح على النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصلوا علناً عند الكعبة⁽⁵⁾. وقد انطوى هذا على مخاطر بالطبع؛ لكن الأمر كان يتعلق بأن يظهروا لزعماء عشائر قريش أن للمسلمين وجوداً بينهم وأنهم مصممون على المضي في رسالتهم. وقد دخل عمر وحمزة - رضي الله عنهما - المعروفان بقوة الشكيمة الكعبة وصليا قبل بقية المسلمين الذين صلوا بعدهم جماعة دون أن يجروا أحد على منعهم.

النفي

على أن الأمور قد بلغت حداً لا يمكن السكوت عليه. فكان التوتريزاد يوماً بعد يوم، وشعر زعماء قريش الذين اجتمعوا للتشاور في طريقة لوضع حد لهذا التوسع البطيء، بأنه أصبح من المحتم عليهم اتخاذ تدابير أكثر جذرية، كان أوائل الذين دخلوا في الإسلام ينتمون إلى جميع القبائل، الأمر الذي جعل من المتعذر عليهم اللجوء إلى إستراتيجية تقوم على أساس التحالفات التقليدية، فبعد مناقشات طويلة وحامية الوطيس، التي كانت بذاتها تقسم العشائر من الداخل، قرروا محاصرة جميع بني هاشم، وهم عشيرة محمد ﷺ، وفرض مقاطعة تامة ضد العشيرة وأفرادها.

ثم تعاهد نحو أربعين من زعماء قريش ووقعوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم، وقرر أبو لهب، الذي كان ينتمي إلى عشيرة هاشم، أن يتبرأ من عشيرته ويدعم المقاطعة، مخالفاً بذلك أعراف الشرف التقليدية، أما أبو طالب فقد اتخذ موقفاً معاكساً وظل يدعم ابن أخيه، الأمر الذي أجبر قريش على أن تشمل بحكم الواقع عشيرة المطلب في المقاطعة، كان هذا قراراً جذرياً، إذ إنه كان يعني ضمناً تجنب أي اتصال بأفراد العشيرة، فلن يعودوا إلى الزواج من بناتهم وأبنائهم ولا الاتجار معهم أو إقامة أي اتصال معهم، إلى ما هنالك، وكان من المفترض أن تكون المقاطعة شاملة وأن تستمر طالما ظلت العشيرتان تسمحان بمواصلة محمد ﷺ الدعوة إلى رسالته، كانوا يريدون أن ينهي مهمته ولا يتحدث أبداً عن الله الواحد الأحد.

قررت عشيرتا بني هاشم والمطلب، حرصاً على أمنهما، الانتقال معاً إلى منطقة واحدة في وادي مكة، ومع أن المقاطعة لم تكن كلية - حيث كان الأقارب يوصلون الطعام والبضائع خفية إلى بني هاشم - إلا أن الوضع أصبح خطيراً، وازداد عدد الذين أصبحوا يعانون من المرض والجوع من بينهم، ودامت المقاطعة أكثر من ثلاث سنوات وأضعفت العشيرتين من الناحية الاقتصادية، فقد خسر أبو بكر رضي الله عنه معظم ثروته نتيجة المقاطعة وأصبحت الضغوط الاجتماعية والنفسية لا تحتمل.

كان يوجد من بين أفراد قريش من يرون أن هذه المقاطعة غير ضرورية، إن لم تكن عديمة الفائدة، وكان بعضهم بالطبع مرتبطين بالعشيرة بروابط القرابة، التي يتعذر نسيانها أو التكرار لها، وجرت محاولات عديدة لوضع حد للمقاطعة خلال تلك السنوات الثلاث، لكنها لم تنجح أبداً لأن عدداً من الشخصيات الأساسية، مثل أبي لهب وأبي جهل يرفضون مناقشة الموضوع، وأخيراً حدث التغيير بمبادرة من بضعة أفراد يبحثون عن الحلفاء في كل من العشيرتين، فبينما كان الناس متجمعين قرب الكعبة، خاطب أحدهم الآخرين، وأعرب عن معارضته للمقاطعة المفروضة على بني هاشم. ثم انضم إليه رجل من بين الجماعة، وتلاه آخر، ثم شخص رابع، وحاول أبو جهل التدخل، لكن المجتمعين الذين كان الكثيرون منهم يرون ذلك الرأي لكنهم لم يكونوا يجروؤن على الكلام، أجمعوا على معارضة المقاطعة، وذهب أحد أفراد المجموعة التي بادرت في القيام بهذا التمرد إلى داخل الكعبة، وتناول الصحيفة التي تضمنت قرار

المقاطعة ومزقتها، وشعر المتشددون أنه لا فائدة من المقاومة فتم بذلك رفع الحصار، وكان الغوث ملموساً لدى العشيرتين المنفيتين، حيث إن الوضع كان قد أصبح لا يحتمل.

عام الحزن

تحسن وضع المسلمين عدة أشهر بعد انتهاء المقاطعة. فعادوا إلى إقامة علاقات من الصداقة والعمل مع القرشيين، وواصل النبي ﷺ نشر رسالته وأصبح الظهور العلني الذي استهله عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقعاً يومياً في مكة، مع أن الإهانات والاضطهاد لم تتوقف.

لكن سرعان ما تغيرت الأوضاع تغيراً مثيراً. فقد توفيت زوجة النبي ﷺ خديجة - رضي الله عنها - بعد فترة وجيزة من رفع المقاطعة، كانت خديجة زوجة للنبي ﷺ ورفيقته في الدين وأوثق الداعمين له طيلة خمس وعشرين سنة، وتوفاها الله بعد تسع سنوات من بداية الدعوة، في (619م). حزن النبي ﷺ حزناً عميقاً لوفاتها: كان قد تلقى في مرحلة مبكرة، من الملك جبريل، نبأ اختيار خديجة - رضي الله عنها - وكان يعرف أن وجود خديجة - رضي الله عنها - إلى جانبه كان من آيات حماية ومحبة الله له، ففي ضوء وجودها والدور الذي قامت به في حياته، يمكن تقدير المعاني المتعددة الممكنة لآية سيتم تنزيلها بعد مدة طويلة جاء فيها وصف العلاقة بين الزوج وزوجته: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾⁽⁶⁾. لقد كانت الدرع الذي يحمي (عاطفياً ومادياً)، ويخفي (حالات الضعف والشكوك فضلاً عن الثروة)، ويوفر الدفء والقوة والمركز والعزة والتواضع.

ولم يمض وقت طويل على وفاتها حتى مرض أيضا أبو طالب، الذي كان يمنع النبي ﷺ حتى ذلك الوقت من قريش، وقد زاره النبي ﷺ وهو على فراش الموت، وأكد أبو طالب أنه كان سعيداً في حماية ابن أخيه، الذي كان دائماً متواضعاً وعادلاً، ودعاه محمد ﷺ إلى النطق بالشهادة قبل الرحيل، لكي يشفع له فيها عند الله، لكن أبا طالب الذي كان حريصاً على مفاهيم الشرف لدى العشيرة، قال إنه يخشى أن تظن قريش بأنه نطق بالشهادة خوفاً من الموت، ولم يكن هنالك وقت لبحث الموضوع أكثر من ذلك: فقد توفى أبو طالب والنبي ﷺ إلى جانبه، فهذا الرجل، الذي قام بشهامة وشجاعة بمنح الشاب حمايته، وحبّه واحترامه، لم يدخل في الإسلام، وكان محمد ﷺ يحبه، ويحترمه، لذا فقد كان حزنه شديداً وعميقاً. عن هذا الحزن وانعدام الحول والقوة، نزلت آية بشأن هذا الحدث لتقرر درساً خالداً بشأن أوضاع القلوب وأسرارها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) (٧).

في غضون بضعة شهور، بدا أن النبي ﷺ أصبح عرضة للأذى أكثر من ذي قبل: لقد فقد الشخص الذي منحه الحب والشخص الذي منحه الحماية. على أنه، رغم حزنه، كان عليه أن يتصرف بسرعة ويجد الوسيلة لحماية جماعة المسلمين الذي ظلوا مقيمين في مكة، فقرر محمد ﷺ البحث عن الدعم خارج المدينة.

الطائف، والرقيق

قصد النبي ﷺ بلدة الطائف وتحدث إلى زعماء قبيلة ثقيف، على أمل أن يستجيبوا لرسالة الإسلام ويوافقوا على حماية المسلمين من أعدائهم.

لكنه استقبل استقبالاً في غاية البرود، وسخر الزعماء من قوله بأنه نبي. فقد سألوا كيف يسمح الله لرسوله أن يطلب الدعم من قبائل غريبة؟ ولكنهم لم يكتفوا برفض مناقشة المسألة بل إنهم أغروا الناس به: ف فيما كان يغادرهم كانت الإهانات تلاحقه وكان الصبية يقذفونه بالحجارة. وتجمع الكثير من الناس وأخذوا يسخرون منه وهو يمر بهم، وأخيراً لجأ إلى بستان هرباً من الذين كانوا يلاحقونه. وبعد أن بقي وحيداً ولم يجد حماية من البشر، توجه إلى الواحد الأحد وأخذ يدعو بهذا الدعاء:

«اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى غريب يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، لكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر هذه الدنيا والآخرة من أن يحل علي غضبك أو ينزل بي سخطك، ولك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» (8).

لقد توجه إلى الواحد الأحد الذي يحميه والذي يتوكل عليه عندما سُدَّت وجهه السبل، لم تكن الأسئلة التي طرحها تعبر عن شك بشأن بعثته، لكنها أعربت بوضوح عن عجزه كبشر وعن جهله بمقاصد الله، في تلك اللحظة بالذات، وبعيداً عن بقية الناس، في وحدة إيمانه وثقته بالرحمن الرحيم، سلم أمره كلياً لله، وهذا يعني أن هذا الدعاء يكشف عن كل الثقة والاطمئنان اللذين استقاها محمد ﷺ من صلته بربه الأقرب إليه من حبل الوريد، هذا الدعاء، الذي اشتهر بين المسلمين، يفصح عن عجز

البشرية وعن قوة الرسول الروحية الخارقة، لقد كان يعرف، رغم ما بدا من أنه وحيد ولا نصير له، أنه لم يكن وحيداً.

كان صاحباً البستان قد شاهداً محمداً ﷺ عن بُعد عند دخوله البستان، وشاهداه وهو يرفع يديه ويدعو الله. فأرسلا عبدهما عداساً، وهو شاب نصراني، ليأخذ له عنقوداً من العنب، وعندما أعطاه عداس العنب، سمعه يقول، (بسم الله)، (أتوكل على الله). أصيب عداس بدهشة شديدة وسأل عن هوية هذا الرجل، الذي قال كلمات لم يكن -وهو النصراني- قد سمع أحداً من الوثنيين يتفوه بها، وسأله محمد ﷺ عن بلده فأجابه عداس بأنه من نينوى، فقال النبي ﷺ: «هذا بلد يونس ابن متى». فذهل الشاب وتعجب من استطاعة هذا الرجل معرفة ذلك، وبعد أن أخبر عداس محمداً ﷺ بأنه نصراني، سأل عداس محمداً ﷺ بدوره عما يكون، وكيف حصل على تلك المعلومات، فقال له النبي ﷺ: «إن يونس أخي، فهو نبي وأنا نبي»⁽⁹⁾.

حدّق عداس في وجهه قليلاً ثم قبل رأسه ويديه وقدميه، فأثار ذلك حنق سيديّه، فعندما عاد إليهما قال لهما إن ما يعرفه هذا الرجل لا يعرفه إلا نبي. اعتنق عداس الإسلام على الفور، بعد مناقشة استغرقت بضع دقائق. كان ملك الحبشة النصراني قد اكتشف على الفور الصلة بين الرسالتين، والآن فقد شاركه عبد شاب، نصراني أيضاً، في حديثه، وهكذا فقد لقي محمد ﷺ في طريقه مرتين، وهو يعاني من الحزن والعزلة، نصارى أولوه الثقة والاحترام والمأوى: أحدهما ملك رحب بالمسلمين ومنحهم الأمن، والثاني عبد خدم نبيهم عندما رفضه الجميع وأنكروا رسالته.

ثم انطلق النبي ﷺ عائداً إلى مكة، في طريقه لقي فارساً وطلب إليه أن يسأل أحد وجهاء مكة الذي كان يمت إلى الفارس بصلة القرابة، إن كان يوافق على أن يجير محمداً ﷺ قبل الفارس لكن وجيه مكة رفض، وكذلك رفض زعيم آخر كان محمداً ﷺ يسعى إلى نيل حمايته. ولم يكن النبي ﷺ يرغب في دخول مكة في تلك الظروف ولجأ إلى كهف حراء، حيث نزل عليه الوحي في المرة الأولى، وأخيراً أجاره رجل ثالث واسمه مطعم وهو أحد زعماء عشيرة نوفل ووافق على حمايته وحيّاه عند الكعبة لإشهار حمايته له.

الإسراء

كان النبي ﷺ يحب الذهاب إلى الكعبة ليلاً، كان يقف هناك ويصلي ساعات طويلاً، وفي إحدى الأمسيات، شعر فجأة بتعب شديد واستغرق في النوم (10).

قال محمد ﷺ بعد ذلك أن جبريل أتاه وهزمه مرتين ليوقطه، لكن محمداً ﷺ ظل نائماً، وفي المرة الثالثة التي هزمه جبريل فيها آفاق محمد ﷺ وقاده جبريل إلى باب المسجد، حيث كان حيوان أبيض (بين البغل والحمار، لكن كان له أجنحة) ينتظرهما، فركب ذلك الحيوان، الذي دعي بالبراق وانطلق مع جبريل إلى القدس، هناك قابل محمد ﷺ مجموعة من الأنبياء الذين سبقوه (إبراهيم، وموسى وغيرهما) وصلى بهم عند موقع المعبد، بعد الصلاة، رُفِعَ محمد ﷺ مع جبريل إلى ما يتجاوز المكان والزمان، وفي طريقه، عبر السماوات السبع، قابل ثانية

مختلف الأنبياء، ونفذت رؤيته وجمال تلك الآفاق إلى صميم كيانه. وأخيراً وصل إلى سِدرة المنتهى، وهناك تلقى النبي ﷺ فرض الصلوات الخمس اليومية والآية التي وضعت عناصر العقيدة الإسلامية (11):

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٣٨٥) (12).

وعاد جبريل والبراق بمحمد ﷺ إلى القدس ومن هناك إلى مكة، وفي طريق عودته شاهد بعض القوافل المتوجهة إلى مكة أيضاً، وكان الوقت لا يزال ليلاً عندما بلغا جوار الكعبة فغادر جبريل والبراق وتوجه النبي ﷺ إلى بيت أم هاني - رضي الله عنها - وهي من أخلص صحابته، فقص عليها ما حدث له، وأشارت عليه بأن لا يحدث أحداً بذلك، وهو ما رفضه محمد ﷺ وقد أورد القرآن فيما بعد هذه التجربة في موضعين مختلفين، أحدهما في سورة الإسراء التي أشارت مباشرة إلى الحدث:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِزَيَرِهِ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) (13).

كما وردت أيضاً في سورة النجم:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ۖ﴾ (٤) (٥) (٦) (٧) (٨)

أَوَأَدْنَى ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ ۖ مَا أَوْحَىٰ ۖ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۖ
 ۙ أَفَتُمْنُونَهُ ۚ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۚ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ
 الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۖ مَا
 زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۖ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ (14).

أثار الإسراء والمعراج العديد من التعليقات، عندما سرد النبي ﷺ الوقائع، ولاحقاً لدى علماء المسلمين، فعندما ذهب محمد ﷺ إلى الكعبة وحدث عن تجربته، أطلق ذلك سيلاً سريعاً من السخرية والاستهزاء والنقد، فقد رأت قريش أنه أصبح لديها أخيراً برهان على أن هذا النبي المزعوم كان مجنوناً في حقيقة الأمر؛ لأنه تجرأ على الزعم بأنه قطع في ليلة واحدة السفر إلى مدينة القدس (التي تحتاج بحد ذاتها إلى عدة أسابيع) وأنه، علاوة على ذلك، فقد عرج إلى الله الواحد الأحد، فهذا جنون واضح.

كانت تجربة ليلة الإسراء، التي تحدثت عنها الروايات الكلاسيكية عن حياة النبي ﷺ بوصفها هبة من الله وتثبيتاً للرسول المصطفى، اختباراً حقيقياً لمحمد ﷺ ومن حوله، فقد رسمت الحدود بين أولئك المؤمنين الذين كان إيمانهم يتجلى في ثقتهم بالنبي ﷺ ورسالته، والآخرين، الذين ذهلوا جراء كون تلك القصة أبعد ما تكون عن الاحتمال، وقد سارع وفد من قريش إلى أبي بكر رضي الله عنه يسأله عن صديقه المجنون الذي فقد عقله، لكن إجابته الفورية والمباشرة أثارت دهشتهم: «لئن كان قال ذلك فقد صدق!» لقد كان إيمان أبي بكر رضي الله عنه وثقته على درجة من القوة

والثبات بحيث إنه لم يتأثر بما قالوه ولو لثانية واحدة، وبعدها ذهب يسأل النبي ﷺ الذي أكد له الوقائع فكان أن قال أبو بكر رضي الله عنه: «إني أصدقك فأنت تقول الحق دائماً» (15). منذ ذلك اليوم أطلق النبي ﷺ على أبي بكر لقب «الصديق».

لقد حدثت واقعة الإسراء في وقت كان فيه المسلمون يعانون من وضع في غاية الصعوبة، وقد جاء في الأثر أن بضعة من المسلمين ارتدوا عن الإسلام، لكن الغالبية العظمى صدقوا محمداً ﷺ. وبعد بضعة أسابيع، أكدت الوقائع بعض عناصر روايته، مثل وصول القافلة التي كان قد تحدث عنها (حيث إنه رآها في طريق العودة) ووصفها وصفاً دقيقاً. بهذا الإيمان القوي من جانب جماعة المسلمين، استطاعوا مواجهة الشدائد التي كانت تنتظرهم لاحقاً، فمنذ ذلك الوقت أصبح عمر ابن الخطاب وأبو بكر - رضي الله عنهما - يحتلان مركز الطليعة لهذه القوة الروحية.

تساءل العلماء المسلمون، منذ البداية، عما إذا كان الإسراء بالروح أو بالروح والجسد، على أن هذا الموضوع ليس أساسياً إذا ما نظرنا إلى الدروس التي يمكن استقاؤها من هذه التجربة الخارقة التي تعرض لها النبي ﷺ. هناك بالطبع، قبل كل شيء مركزية مدينة القدس: في ذلك الوقت كان النبي ﷺ يصلي مستقبلاً المدينة المقدسة (القبلة الأولى للصلاة) وقد صلى بالأنبياء عند موقع المعبد في ليلة الإسراء، وهكذا فإن القدس تبدو في صميم تجربة النبي ﷺ وتعاليمه بوصفها رمزاً مزدوجاً، لكل من المركزية (اتجاه القبلة) والعالمية (الصلاة بجميع الأنبياء). وقد

تغيرت القبلة لاحقاً في المدينة - من القدس إلى الكعبة - وذلك لتمييز الإسلام عن اليهودية، لكن هذا لم يقلل بحال من الأحوال مكانة القدس، وقد أقامت الإشارة في الآية أنفة الذكر إلى «المسجد الحرام» (الكعبة، في مكة) و«المسجد الأقصى» (في القدس) صلة روحية ومقدسة بين المدينتين.

أما الدرس الآخر فله جوهر روحي صرف: فقد كان الوحي برمته ينزل على محمد ﷺ طيلة رسالته الأرضية، باستثناء، كما رأينا، الآيات التي أرست أسس الإيمان الأساسية وفريضة الصلاة، فقد عُرج بالنبى ﷺ إلى السماء ليتلقى الدروس التي كانت ستصبح أساس تعاليم الإسلام وطقوسه، أي العقيدة والعبادة، التي تقتضي من المؤمنين قبول شكلها وجوهرها⁽¹⁶⁾. فخلافاً لمجال الشؤون الاجتماعية (أي المعاملات)، التي تنطوي على التوسط المبدع لفكر الناس وذكائهم، فإن العقلانية البشرية هنا تخضع، باسم الإيمان وكتطبيق لمبدأ التواضع لله، لأمر الوحي: لقد فرض الله واجبات ومعايير يتعين على الفكر أن يصفي إليها ويطبّقها وعلى القلب أن يحبها، فبعد أن عُرج بالنبى ﷺ لتلقي الأمر بفريضة الصلاة، بين النبي ﷺ من التجربة التي مرّ بها ما يجب أن تكون الصلاة عليه في جوهرها: فهي تذكرة بالعلي الأعلى وعروج إليه، خمس مرات في اليوم، بغية الانصراف عن الذات، وعن العالم، وعن الأوهام، فالمرّاج، إذاً هو أكثر من مجرد النموذج الأصلي للتجربة الروحية، فهو حافل بالمعنى العميق للصلاة، التي تمكّننا، من خلال الكلمة الأزلية، من تحرير وعينا من الأمور الطارئة للزمان والمكان، وفهم معنى الحياة والحياة فهماً كاملاً.

إلى المنفى

الزمن هو عام (620 م)، أي بعد سنة من وفاة زوجة محمد ﷺ، خديجة - رضي الله عنها - وعمه أبي طالب، وكان زمن الحج السنوي إلى الكعبة وموسم سوق مكة السنوية يقترب، وكان محمد ﷺ لا يزال ينشر رسالته في جو من الرفض والاستبعاد والاضطهاد وكان نحو مئة من المسلمين يعيشون في حماية الحبشة، لكن لم يكن يلوح في الأفق حل للمسلمين الذين يعيشون في مكة.

وبدأ الحجاج القادمون من جميع مناطق الجزيرة يصلون إلى منى، حيث يمكثون فيها طيلة مدة الموسم، وكان محمد ﷺ يذهب إلى ذلك المكان ويدعو إلى دينه النساء والرجال الذين كانوا قد سمعوا به وهم في أماكنهم لكنهم لم يكونوا يعرفون مضمونه على وجه التحديد. ولم يكن دائماً يلقي استجابة إيجابية.

وفي العقبة، ليس بعيداً عن منى، قابل النبي ﷺ جماعة من أهل يثرب كانوا ينتمون إلى قبيلة الخزرج، هي إحدى القبيلتين الكبيرتين المتناحرتين في يثرب (والثانية هي قبيلة الأوس)، وأخذ يعرض عليهم رسالته، وكانوا قد سبق لهم أن سمعوا عن الرسالة من القبائل اليهودية التي كانت تعيش في مدينتهم، ويرغبون في معرفة المزيد عنها.

فاستمعوا إلى النبي ﷺ وبعد ذلك قبلوا رسالة الإسلام؛ ووعدوا بإخبار أفراد قبيلتهم بشأن جوهر الرسالة وبالبقاء على اتصال دائم مع النبي ﷺ (17). ثم عادوا إلى مدينتهم وأخذوا يبشرون بالرسالة فيها.

وفي مكة، كان عدد الذين يدخلون في الإسلام يتزايد وواصل النبي ﷺ نشر دعوته، وفيما يخص حياته الشخصية، أشار عليه الكثيرون بأن يتزوج ثانية، لكن النبي ﷺ لم يتابع الموضوع رغم الاقتراحات. لكنه كان قد رأى في المنام رؤيتين تضمنتا عرض عائشة صغيرة السن، وهي ابنة أبي بكر رضي الله عنه، والتي كانت في ذلك الوقت في السادسة من العمر، ليتزوجها. وعندما أشارت عليه خولة، التي تولت رعاية احتياجات النبي ﷺ منذ وفاة خديجة - رضي الله عنها - أن يتزوج ثانية واقترحت عليه اسمين: سودة، وهي أرملة في الثلاثينيات من العمر كانت قد عادت مؤخراً من الحبشة، وعائشة، ابنة أبي بكر رضي الله عنه - وجد محمد ﷺ في هذه المصادفة العجيبة دليلاً على صدق الرؤيتين، وطلب إلى خولة أن تفعل اللازم للتأكد من أن الزواج من الاثنين ممكن، كان تعدد الزوجات مألوف عند العرب في ذلك الوقت، وكان وضع النبي ﷺ هو الشاذ عن القاعدة، إذ إنه ظل متزوجاً من واحدة طيلة خمس وعشرين سنة، كان الزواج من سودة سهل التحقيق، فقد أجابت سودة على الفور مرحبة بعرض الزواج وتزوجا بعد بضعة شهور، أما عائشة - رضي الله عنها - فقد كان أبوها قد وعد، حسب التقاليد العربية، بتزويجها من ابن مطعم، وكان عليه أن يتفاوض مع مطعم من أجل إلغاء الارتباط، بعد ذلك أصبحت عائشة - رضي الله عنها - رسمياً زوجة محمد ﷺ الثانية، وإن كان الزواج لم يتم إلا بعد عدة سنوات.

بعد سنة، كان الحجاج والتجار يندفعون أفواجا إلى مكة من أجل احتفالات 621، وتم ترتيب اجتماع ثان عند العقبة بين النبي ﷺ ووفد يثرب الذي أتى للإبلاغ عن تطور الوضع في مدينتهم، وقد شارك في

الاجتماع عشرون فرداً من يثرب، اثنان منهم ينتمون إلى عشيرة الأوس: فقد عاهدوا النبي ﷺ على الولاء، مؤكدين أنهم لن يعبدوا سوى الإله الواحد، دون غيره، وأنهم سوف يلتزمون بأوامر الإسلام ونواهيها، فكانوا يشكلون الجماعة الإسلامية الأولى.

وأرسل محمد ﷺ معهم أحد الصحابة، مصعب بن عمير رضي الله عنه، الذي كان قد عاد للتو من الحبشة والذي اشتهر بالهدوء والحكمة وجمال تلاوته للقرآن.

عندما رجع الوفد إلى يثرب دأبوا على نشر الرسالة، كان مصعب رضي الله عنه يعلمهم أصول الإسلام ويتلو عليهم القرآن ويحجب عن أسئلتهم. ورغم الانقسامات القديمة التي كانت لا تزال حادة بين الأوس والخزرج، فقد دخل أفراد القبيلتين في الدين الجديد وأدركوا أن خصوماتهم السابقة أصبحت غير ذات معنى: فقد وحدتهم رسالة الأخوة التي جاء بها الإسلام، على أن زعماء العشائر ظلوا مترددين في اعتناق الإسلام. ولم يكن مصعب رضي الله عنه يتأثر بمهاجمتهم ولا بموقفهم العدائي، بل كان دائماً يقول «أو تجلسون وتسمعون، فإن رضيتم أمراً قبلتموه، وإن كرهتموه فكفوا عنه ما تكرهون»⁽¹⁸⁾. وكانت النتيجة أن ازداد عدد الذين دخلوا في الإسلام، حتى من بين الزعماء.

في حج السنة القادمة اجتمع النبي ﷺ بوفد مهم من مسلمي يثرب، كان يضم ثلاثة وسبعين شخصاً، من بينهم امرأتان. وكانوا من الأوس والخزرج وقدموا ليبشروا النبي ﷺ بانضمامهم إلى الإسلام والتزامهم به. وبعد بعض المناقشات بشأن مستقبل علاقاتهم، أبرموا عهداً ثانياً نص

على أن يقوم مسلموا يثرب بحمايته هو وبقية المسلمين من نساء وأطفال مكة المسلمين، هذه البيعة الثانية التي نصت على منح اللجوء والحماية وتعهد مسلمي يثرب بمساندة إخوانهم المكيين، فتح أمام النبي ﷺ المجال لمستقبل واعد، فمنذ ذلك الوقت، أخذ محمد ﷺ يشجع المسلمين على الهجرة إلى يثرب خلسة، بينما بقي أقرب أصحابه إلى جانبه في مكة.

مع غير المسلمين

كان محمد ﷺ يحتفظ دائماً بعلاقات قوية مع أفراد مختلف العشائر ومع أهله الذين لم يعتنقوا الإسلام، والمثال على ذلك عمه أبو طالب الذي كان يحبه وظل بقربه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، وبقي عمه الآخر، عباس، ملازماً للنبي ﷺ رغم أنه لم يكن قد اعتنق الإسلام بعد، وكان محمد ﷺ يثق به ثقة كبيرة، ولم يكن يتردد في أن يُسرَّ إليه أو يشركه في الاجتماعات الخاصة التي تتعلق بمستقبل الجماعة (وقد حضر عباس لاحقاً بيعة العقبة الثانية، وكان النبي ﷺ يُسرُّ إليه بالاستعدادات بلغة السرية المتعلقة بهجرته إلى يثرب). ولم يكن بقاءه على الوثنية يمنع النبي ﷺ من إظهار عميق احترامه له وثقته الكبيرة في الحالات التي كانت حياته معرضة فيها للخطر.

لقد كان هذا الموقف من الثقة هو الذي مكّن المسلمين من الهجرة إلى الحبشة، بحماية ملك كان النبي ﷺ يثق به رغم أنه لم يكن مسلماً، فقد أقام علاقاته على أساس الثقة ومبادئ الاحترام، لا حصرياً على أساس الانتماء الديني. وقد فهم أصحابه ذلك فهماً صحيحاً، ولم يترددوا في إقامة علاقات متينة مع غير المسلمين باسم القرابة أو الصداقة، على أساس

الاحترام والثقة المتبادلين، حتى في الأوضاع التي كانت تتطوي على الخطر. وهكذا فقد وجدت أم سلمة - رضي الله عنها - التي انفصلت عن زوجها، نفسها وحيدة مع ابنها وهي في طريقها إلى المدينة، وقد عرض عثمان بن طلحة، الذي لم يكن مسلماً أن يرافقها ويحميها حتى تصل إلى المكان الذي كان زوجها فيه، فلم تتردد في الثقة به: فرافقها هي وابنها إلى مقصدهما، ثم ودعهما بكل احترام، وكانت أم سلمة - رضي الله عنها - تسرد هذه القصة مراراً وتكراراً، وتشيد بنبل أخلاق عثمان بن طلحة رضي الله عنه.

ثمة أمثلة كثيرة من هذا الطابع، ولم يكن النبي ولا بقية المسلمين يقصرون علاقاتهم الاجتماعية والإنسانية على من كانوا من دينهم. وقد ثبت القرآن لاحقاً صحة مبدأ تلك العلاقة التي تقام على أساس الاحترام المتبادل:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝﴾ (19)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم نفسه نموذجاً للإنصاف إزاء الذين لم يكونوا من دينه. فطيلة سنوات بعثته، استمر في تلقي الودائع من التجار غير المسلمين الذين ظلوا يتعاملون معه ويولوه كامل الثقة. وعشية مغادرته إلى المدينة، طلب محمد صلى الله عليه وسلم من علي رضي الله عنه أن يعيد كافة الودائع التي كانت لا تزال في عهده إلى أصحابها فرداً فرداً، وقد ظل يطبق بدقة مبادئ الأمانة والعدل

التي علمه إياها الإسلام مع كل من تعامل معه، سواء أكان من المسلمين أم من غير المسلمين.

وفي هذه الحقبة نفسها، أظهر النبي ﷺ موقفاً ليناً إزاء الذين تركوا الإسلام، جراء الاضطهاد والضغط من جانب أسرهم، كان هذا هو حال اثنين من شباب المسلمين، هما هشام وعياش، اللذان تخليا عن الإسلام بعد مقاومة طويلة الأمد، فلم يتم اتخاذ أي قرار أو عقوبة ضدهما، وقد عاد عياش لاحقاً إلى الإسلام وهو نادم أشد الندم ومليء بالحزن. وجاء الوحي لاحقاً للتخفيف من رؤيته وحكمه القاسيين على نفسه:

﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٣ ﴾
وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٤﴾ (20).

وعندما سمع هشام هذه الآيات، عاد هو أيضاً إلى الإسلام، لكن أحد الذين لم يرجعوا كان عبيد الله بن جحش، الذي كان قد ذهب إلى الحبشة مع المجموعة الأولى من المهاجرين ثم تحول إلى النصرانية وترك زوجته، أم حبيبة بنت أبي سفيان (21).

لم يقم النبي ﷺ، من مكة، ولا أحد من المسلمين الذين كانوا في الحبشة، باتخاذ أي إجراء ضده: فقد ظل نصرانياً إلى أن وافته المنية، دون أن يتعرض إلى أي مضايقة أو سوء معاملة، ظل هذا الموقف المتمثل باحترام حرية كل شخص ملازماً للنبي ﷺ طيلة حياته، ولم تتضمن أي

روايات موثوقة عن حياته أي ذكر لموقف مختلف، لكنه تحدث بشدة لاحقاً في المدينة، واتخذ إجراءات صارمة ضد المنافقين الذين تظاهروا باعتناق الإسلام بدافع مجرد جمع المعلومات عن المسلمين، ثم تخلوا عن الإسلام وعادوا إلى قبائلهم بالمعلومات التي استطاعوا الحصول عليها. هؤلاء هم في الواقع خونة حرب، استحقوا عقاب الموت لأن أعمالهم كانت ترمي إلى تدمير الجماعة الإسلامية.

الإذن بالهجرة

كان آخر الذين أجازوا النبي ﷺ (مطعم) قد توفي حديثاً، وأصبحت الأوضاع شديدة الصعوبة، وكان القرشيون الذين اكتشفوا أن المسلمين بدؤوا يغادرون مكة، قد أصبحوا بدورهم أشد عنفاً في مقاومتهم للمسلمين. وقرر زعماء العشائر أن يتحدوا وقرروا استناداً إلى تحريض أبي لهب وأبي جهل، بأنه يجب القضاء على النبي ﷺ كانت خطتهم تقضي بتكليف قاتل من كل عشيرة ليمنعوا بني هاشم من الثأر والمطالبة بالدية. واتفقوا على عدم إضاعة الوقت، وأن عليهم التخلص من النبي بالسرعة الممكنة.

كان جبريل قد جاء ليؤكد للنبي ﷺ معنى رؤيا كان قد رآها قبل بضعة أيام، حيث رأى في المنام مدينة مزدهرة تظهر وترحب به. قال له جبريل بأن عليه الاستعداد للهجرة إلى يثرب وأن يصحب معه أبا بكر ﷺ. انطلق محمد ﷺ ليبشر أبا بكر ﷺ بالنبأ، فبكى أبو بكر ﷺ فرحاً، على أنه كان لا يزال عليهما ترتيب التفاصيل النهائية لرحلتهما. كانا قد سمعا أن قريشاً قد وضعت خطة للتخلص من النبي، فطلب محمد من علي ﷺ أن يرقد في فراشه في الليلة اللاحقة وألا يغادر مكة حتى يأمره بذلك.

اختبأ الذين كانوا يرومون قتل النبي ﷺ أمام البيت وانتظروا خروجه،
مثلما كان يفعل عادةً، لصلاة الفجر، وعندما سمعوا صوتاً داخل البيت،
ظنوا أن محمداً ﷺ قد نهض وأنه يستعد للخروج، وكانوا على وشك
القيام بالهجوم عندما أدركوا أنهم خُدِعوا، وأن الرجل الذي في البيت هو
ابن عمه علي رضي الله عنه. وهكذا فقد فشلت خطتهم. في غضون ذلك كان النبي
ﷺ قد توجه إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه بعد أن كان قد أنهى آخر التفاصيل
المتعلقة بمغادرته إلى يثرب.

